# بين العدالة والقانون

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ دريني خشبة

— وماذا تستطيع أن تنال بالعنف ياصديقى إبراهيم ؟ لم لا تلجأ إلى قدس القضاء تعرض عليه شكواك ؟

— لن ألجأ إلى هذه الوسيلة العاجزة ياصديقى ؟

— القضاء وسيلة عاجزة ؟ ماذا تقول ؟ لقد بلغ القضاء فى مصر ذروة العدالة ، بل هو فى مصر أنزه منه فى كثير من الأمم التى تفوقنا حضارة ... فكيف تنعته بالعجز ياصديقى ؟

— أنا ياأخى لا أنعت قضاءنا بالعجز ، وإن اقتناعى بنزاهة قُضاتنا لا يفوقه اقتناع . لكننى مع ذلك أعده وسيلة عاجزة في رد الحقوق ، وإن شئت التخفيف من حدة التعبير ، فقل إنه وسيلة بطيئة بطئاً يشبه حَبْو المقعد

— أنت تقسو فى حكمك ياإبراهيم !

— لست أقسو ، إذ هذا هو الواقع ، بل هذا هو الذى يشجع أخانا على هضم حقوقنا .. إنه خبير بأحوال محاكمنا وتعقد الاجراءات القضائية فيها ، ثم هو مطمئن من أجل هذا إلى خشيتنا وشدة تخوفنا من أن ندخل المحكمة . وهذا شعور عجيب يلابس الطامعين وآكلى الحقوق ويجعلهم يفترسون الضعفاء ويخرجون من مساومتهم باغتيال حقوقهم واضطرارهم إلى قبول ما يعرضون عليهم صاغرين !

— إذن هذا هو شعور العجز !

— عجز من ياصديقى ؟

— عجزك أنت إنك بكلامك هذا تبرهن على أنك رجل غير مقاحم ، تؤثر أن تعيش على هامش الحياة ، دون أن تخوض عبابها فتصارع الأهوال فيها !

— أنت تظلمنى ياعبد الكريم ، بل أنت لا تفهمنى !

— بل أنا أفهمك أكثر مما تفهم أنت نفسك. إنك مع خشيتك من اللجوء إلى القضاء ، وهو الطريق الأوحد الذى تنال به حقوقك ، تدعى أنك ستنال هذه الحقوق بالعنف ، فماذا عساك تفعل ؟

— سأقتله !

— أنت ؟

— أجل ، أنا !

— إنك لن تستطيع هذا !

— ولم لا أستطيع ؟

— لأنك رجل مهذب لا ترضى أن تلوث يديك الشريفتين بالجريمة . ومع ذلك فالقضاء الذى تفر منه اليوم ، هو الذى سيطاردك حتى يثأر لأخيك منك ... على أننى لا أدرى علام تريد قتل أخيك !

— لأنه ظلمنا !

— وكيف ظلمكم يا صديقى ؟ أليس أبوك — عليه رحمة الله — هو الذى نزل له عن هذه الدور والضياع ؟ هل اختلسها منه مصطفى ؟

— أبى لم ينزل لأحد عن أملاكه !

— تريد أن تقول إن هذا عمل مزور ؟ أليس كذلك ؟

— لا ... وليس هذا أيضاً !

— إذن ماذا يا صديق ؟

— لقد كان أبي يضارب بأمواله في التجارة وقد أراد أن يصون ثروتنا بالنزول لابنه الأكبر عنها ... فهو نزول صوري كما ترى

— إذن هي الألعوبة التي يلجأ إليها الناس ليأكلوا أموال غيرهم إلى أموالهم ؟

— لقد كان أبي رجلا شريفاً ، ولم يسع يوماً إلى أكل أموال أحد ...

— وأنت مع ذلك تجيز تصرفه وتبرره ؟

— ... ؟ ...

— وهل كسب أبوك في مضارباته أم خسر ؟

— لقد خسر خسارة فادحة !

— ومن الذي احتمل خسارته وقد نزل لابنه هذا النزول الصوري عن أملاكه ؟

— احتملته الشركة التي كان يعاملها !

— وأموال هذه الشركة حلال لأبيك يضيعها بمضارباته في غير مبالاة ؟

— لو أنه ربح لربحت الشركة مالا عظيما ... وكم من مرة أربحها الألوف !

— إذن لم يكن أبوك تاجراً ، بل كان ... عفواً يا صديق !

— عفواً ماذا ؟ ماذا كنت تريد أن تقول ؟

— لو كان الرجل الذي نتكلم عنه رجلا آخر غير أبيك لقلت إنه كان لصاً ولم يكن تاجراً ! ...

— إنك تهينني يا عبد الكريم !

— عفواً يا صديقي فوالله ما أردت إهانتك قط، وقد عرفت أباك ، فعرفت فيه النبل وحميد الخصال .. غير أن محاولته صون ثروته بهذه الوسيلة كان ضعفاً منه ، لأن الذي لا يجيد السباحة يخلق به ألا يلقي بنفسه في اللجة ، وكذلك التاجر الذي يعتمد على الله في كسب قوته ، يخلق به ألا يكون مغامراً ، فاذا لم ير بأساً في أن يكون كذلك ، فلا يخلق به أن يتجرد من كل فضائله ظناً منه أن المقامرة ليست أعلى درجة من اللصوصية

— وماذا كنت تريده أن يصنع إذن ؟

— كان الأفضل أن يدخل المترك وثروته من ورائه تسنده وتشد أزره ،

— وكيف كانت تسنده وقد خسر خسارة كانت تذهب بكل ما يملك ؟

— لو حدث هذا لكان بقي له شرفه ، والتاجر الذي يخسر ماله ولا يخسر شرفه يستطيع أن يستعيد المال إذا بدأ الشوط من جديد ... أما أنه يستحل أموال الناس فيأكلها بالباطل فهذا هو ضياع الشرف ، والتفريط في الكرامة التي جعلها الله تاج عباده من بني آدم ... على أنه ما استفاد أبوكم ؟ لقد قعد ملوماً محسوراً يبقى على القليل من المال الذي أضاع حتى مات من الهم ، وتركك أنت وأخاك الأصغر وأختك الصغرى فرائس لجشع أخيكم يستبد بكم ، ويذيقكم لباس الجوع والخوف ، دون أن يرعى الله فيكم ، ولا أن يرجو خشيته !!

— لهذا أردت أن أقتله يا عبد الكريم !

— أنت تعود إلى نغمة لا أحب أن ترددها أمامي وأنت تبرهن مرة أخرى على ضعفك واستخذائك... والرجل الذي يهرب من القضاء العادل لأنه بطيء كما يدعي ، لا يستطيع أن يقتل دجاجة

— إذن ماذا أصنع غير أن ألتجيء إلى القضاء ؟

— وحتى القضاء يا إبراهيم لم يعد لك أمل في أن ينتصف لك !

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن القاضى سيجد نفسه مقيداً بعقود بيع رسمى من أبيك لأخيك ، فاذا يصنع ؟

— إنها عقود باطلة !

— هذا كلام تقوله أنت ، وقد تفهمه العدالة التى تتصورها ، لكن القضاء الرسمى لا يفهمه !!

— القضاء الرسمى ؟! هاها ... ألم أقل لك ؟

— ألم تقل لى ماذا ؟

— ألم أقل لك إن القضاء كما يجرى عندنا هو أحسن وسيلة لنصرة الظالمين وإضاعة حقوق المظلومين ؟ القانون ! آه من قانونكم يارجال المحاكم ! القانون الذى أصبح فى اختلاف تفسيره اختلاف توزيع العدالة ، فهذا قاض يحكم ويزعم أن حكمه العدل المحض ، فيأتى قاض آخر يلغى هـذا العدل المحض ويصدر حكما يناقضه ، فيكون العدل المحض الذى صدرعن القاضى الأول ظلما محضاً ، ثم مايلبث قاض ثالث أن ينقض الحكمين جميعا ويصدر هو عدله المحض ، ولا تدرى العدالة بين القضاة الثلاثة أين موضعها ولا أيان مستقرها

— فى كل ذلك تمحيص للحقيقة يا إبراهيم

— تمحيص للحقيقة ؟! ما شاء الله !! وفيـه أيضـا إجاعة للمساكين وصرف لهم عن مرتزقهم وإنفاق على المحامين وإضاعة ما يملكون من كفاف العيش ليحصلوا على ثمن تذكرة يسافرون بهـا إلى مقرالمحكمة ... وفى كل جلسة يحسبون أنها الأخيرة فتكون الأولى ، وينطلق القاضى فيؤجل ويؤجل ، وينتحل الأعذار للتأجيل ، وكلما زين لهم محاميهم الآمال تبددت أمانيهم بين شفاه القضاة ، فعادوا إلى بلادهم محسورين

— وماذا عسى القاضى أن يصنع وهو يقف أمام براهين قانونية ومواد مكتوبة ترسم له خطاه ؟

— لست أدرى ماذا يصنع القاضى لأنى لست قاضيا ، ولو كنت قاضيا لرفضت أن أنظر مائة قضية فى جلسة واحدة لاتستغرق ساعتين !

— وهذا أيضاً لا بد للقضاة فيه يا صديقى !

— كل شيء لابد للقضاة فيه ، وهذا هو الذى يصرفنى عن مقاضاة أخى .. وقد أفقتنى من حلمى .. لنفرض أن القضاء عندنا يسير فى مجراه السريع .. ولننس هذه القضايا المكدسة فى محاكمنا ، والتى يكون قد مضى على آلاف منها سنون وسنون ولما يصدر فيها حكم نهائى ... ولننس جشع المحامين وتلاعبهم بتفسـير المواد ليُصَيِّروا الظلم حقاً والحق باطلا ... لننس هذا كله . . . فقد أرحتنى بصراحتك من الالتجاء إلى قانوننا لأنه لن ينصرنى .. قل لى إذن يا صديقى المحـامى ماذا أصنع لأنال حقى من أخى ؟ وماذا يصنع أخى وأختى ليردا حقوقهما المغتصبة !

— لقد قلت لك كلمة القانون يا إبراهيم !

— كلمة القانون التى لا تجعل لأحد منا حقاً عند أخينا !

— لقد فهمت تماماً ما أردت أن أقول . . . وأرجو ألا أثيرك بهذا فأنت تستشيرنى ، وبما أننى صديقك أحببت ألا أخدعك !

* * *

مسكين هذا الشاب البائس إبراهيم !

لقد انصرف عنه صديقه المحامى بعد أن فاجأه بموقفه وموقف إخوته من القانون تلقاء شقيقهم

الأكبر ، ثم جلس وحده يفكر . . . ويقدح زناد التفكير ، بيد أنه مع ذاك لم يستقر على رأى

لقد لجأ قبـل أن يلقى صديقه المحامى إلى ذوى المروءة من أهله وأعيان بلدته ليكونوا شفعاءه عند أخيه ، لكن أخاه لم يلن ولم تتحرك عاطفة واحدة من عواطف الرحمة فى قلبه ... لقد استولى على قلب أخيه شيطان الدنيا ... لقد استحوذ عليه حب المال فأعماه وأضل بصيرته . . . لقد استذله سلطان المادة فأنساه هذه المعانى السامية التى تصل بيننا وبين الله بصلات النور والهداية

ماذا يصنع إبراهيم ؟ ليكن هذا المال الذى نزل عنه أبوه لولده اتقاء ماتتمخض عنه المضاربة التجارية مالاً غير حلال، لأن العدالة لا تجعله حلالاً لأحد من أبناء التاجر المتوفى ، لكنها تجعله حلالا للشركة التى وقعت على رأسها الخسارة من جراء هذا التهريب

وليكن هنـاك هذا الفارق العظيم بين العدالة والقانون

لكن العدالة فى نظر إبراهيم ليست هى العدالة المطلقة التى تعرفها الفلسفة . . . إنه يعتقد ، بل هو يجزم بأن الثروة التى نزل عنها أبوه لابنه الأكبر عن طريق تصرف قانونى صحيح ، هى حلال لأبناء المتوفى جميعاً ... وليس مما يعنيه أن يكون هذا المال حلالا أو حراماً ، لأنه إن كان مالا نجساً فهو بأيلولته للورثة قد تطهر كما يتطهر مال الربا بوفاة المرابى فلا يحرم أكله على أبنائه

ثم إن إبراهيم لا يقر اللعبة التى انتهت باستيلاء أخيه على كل ما كان يملك أبوه

وهو لا يحترم هذا القانون الذى يحرمه ظلماً من ميراثه لأنه يعرف وجميع إخوته يعرفون أن أباهم لم يكن يقصد إلى تلك النتيجة الخائبة التى انتهى إليها تصرفه المعيب

وهو يقف الآن حائراً فى منتصف طريق الحياة لا يدرى أين يذهب ولا كيف يسير

إنه ما زال يشدو العلم فى مدارس القاهرة ، فليس فى يده سلاح يغنيه عن هذه الثروة المغتصبة الضائعة ؛ وهو شاب عصبى المزاج ، يفكر تفكيراً غير سليم ولا مستقيم وإن كان فيه كثير من الوجاهة

إنه ينظر إلى معترك الحيـاة بمثل النظرة التى ينظر بها أهل هذا الزمان ... نظرة المال !

إنه يرى كل شىء قد قام فى زماننا على دعامة من الذهب ... فالتعلم الراقى لا يناله إلا القادرون عليه من أبناء الأغنياء ولو كانوا أحط فى مراتب الذكاء من أبناء الفقراء ... والتعليم الراقى يصل المتعلمون إلى مناصب الدولة الكبيرة فى حين يحرم منها أبناء الفقراء لأنهم لم يتعلموا ، والديمقراطية نفسها هى عنده كذب فى كذب ، لأن معناها فى اعتقاده وصول الأغنياء القادرين على الانفاق على المعركة الانتخابية إلى كراسي البرلمان ، فيجتمع ثمة رهط من المستبدين الأرستقراطيين ليتشدقوا بأنهم ممثلو الديمقراطية

فالتعلم ومناصب الدولة وكراسى البرلمان وقف فى نظره على أبناء الأغنياء ، وإذا أحد من أبناء الفقراء وصل إلى إحداها بفلتة من القدر ظل منظوراً إليه بأعين الريبة والامتعاض فى كل وسط يغشاه ، وهذه الأعين هى أعين الأغنياء ...

لقد كان ابراهيم يطمع فى مستقبل هو له أهل

ومن أجل هذا فكر فى الحصول على نصيبه من ثروة أبيه بأى طريق ، لأن المـال وحده هو الذى ينيله ما يروم من جاه وسعادة وبلهنية ... وإذا فقد المال فقد القوة الدافعة ، وإذا فقد المال قعد فى بلدته الخاملة الصغيرة وحرم من التعليم ، واضطر لأن ينافق أخاه ويمرغ جبينه تحت قدميه من أجل اللقمة والكساء ، وبذلك ينحط إلى دركات العبيد

لقد قسا عليه أخوه ، ولم ينفق عليه بعد موت أبيه إلا كما يتصدق بخلاء اليهود ... وكان يصحب كل قرش يرسله إليه بالمن المؤلم والأذى المرير ... وقد طفح الكيل حينما أنذره أخوه أنه لا يرى ذهابه إلى المدرسة ، وأنه يفضل أن يبقى ليساعده ، وقد فهم إبراهيم هذه المساعدة على أنها حرمان وتسخير ، فهمها على أنها أول الاستعباد ، ومن أجل ذلك صمم على أن يستخلص حقه من أخيه ولو أدى ذلك إلى قتله :

ما أبشع القتل !

لقد كان مصمما على الجريمة قبل أن يلقاه صديقه المحامى عبد الكريم ، لكن عبد الكريم كان صريحا فى النصح إليه ... لقد قبح إليه الجريمة ، والانسان العصبى سهل القياد ، يثور بسهولة ، ويهدأ بسهولة أيضاً ، لكن صديقه قد أغلق فى وجهه كل باب ... باب الجريمة وباب القانون على السواء ... وباب العدالة مغلق بطبعه لأن قلب أخيه الأكبر مغلق بطبعه كذلك ... فماذا يصنع ؟

هل يخضع لمـا يريد له أخوه من قهر واستعباد ومذلة ؟ لا ! لن يكون هذا ! فنفس إبراهيم نفس أبيه لا تقبل الضيم ، ولا يروضها شئ على الهوان... ثم هو يعرف أن إبراهيم الذى يطمع فى ثروة أبيه كلها ... أو الذى ذهب بثروة أبيه كلها ، سيذهب كذلك بالسعادة التى كانت من حق إخوته وسيضمها إلى سعادته هو ، وهو فى هذا لم يبال بالشقاء الذى يجره فقر إخوته عليهم والذى هو سببه ، فهو بهذا لص ، والعدالة تعتبره هكذا

كره إبراهيم أن يقتل أخاه إذن ، وكره لنفسه أن يلوث يديه بدم الجريمة كما ألقى عبد الكريم فى روعه ، لأنه شاب مهذب ... أو لأن القانون سيطارده ، وسيأخذه بدم أخيه إن فعل ... وقد هال إبراهيم أن يكون صاحب الحق فيقتل ثم يُقتل ... ماذا يستفيد من ذلك ؟ هل يستفيد شفاء نفسه من الحرد الذى يثيره الظلم فيها ؟ لكنه سيدفع الثمن... وسيدفعه كبيراً مضاعفا ... سيسلم رأسه للجلاد ... سيخرج من هذه الدنيا الجميلة المشرقة دون أن يستمتع بحقه فيها ... ثم هو سيترك أخاه وأخته فريستين لأخيه الظالم ، وهو بهذا سيحرمهما من القلب الأوحد الذى يشفق عليهما ويرق لآلامهما ... بل هو سيحرمهما من النصير الذى يعرف أحزانهما ... وإذا خلا مكانه فى وجودهما فسيشغله مصطفى ... وسيشغله مصطفى بالاستعباد والقسوة والمن ... وستكون كل لقمة يأكلانها من يده ، أو جرعة ماء يشربانها فى ظله سما زعافا يمزق أحشاءهما ويهرأ كبديهما .. وحسبهما أن يكونا خادمين من خدم مصطفى ... أو كلبين من كلابه ...

ما أقسى المقادير على إبراهيم !!

• • •

صبر إبراهيم برغمه ... وماذا يملك العاجز غير الصبر ؟

وأزف موعد العودة إلى القاهرة حيث تفتح معاهد العلم أبوابها ... فانقلب صبره إلي جزع ... وكلما أتى زميلا من أقرانه فتحدث إليه عن السفر، اربد وجه إبراهيم، وشاعت الـكآبة فيه، وحبس الدموع فى مآقيه، ثم استأذن وانصرف

وكان يوم أوبة الطلاب إلى معاهدهم، وخرجوا إلى المحطة فى أهلهم وذويهم فرحين مستبشرين ... لكن إبراهيم لم يذهب إلى المحطة ذلك اليوم، بل استخفى فى حجرته الضيقة، حجرته التى ينتزعها القانون منه فيعطيها لأخيه لأنها جزء من المنزل

لقد صار الهواء خانقاً حول الشاب البائس ... لقد رأى الثروة تفلت من يديه باسم القانون ... وشهد سعادته تزور عنه وتشيح بوجهها الجميل الخلاب ...

نظر إلى جدران الغرفة فأوحت إليه بأفـكار غريبة سوداء، وشهد الأبالسة ترقص فوقها تغريه بالشر، وتمد إليه السكين المرهف المشحوذ، وتصفر فى أذنيه، وتضربه فى ظهره، وتـكلمه كلاماً عجيباً لم يكن من دأبه أن يسمعه من قبل

— لم تجلس بليداً هكذا؟ لم يفوز أخوك بهذه الدنيا كلها ويطردك من فردوسك إلى ذاك الجحيم؟ سيكون لك أبناء كما أن لأخيك أبناء، فلم تقذف بفلذات كبدك إلى أيدى الشقاء والتعاسة فى حين ينعم أبناء أخيك بخير ما فى الحياة من نعم وملاذ؟ سيتعلم أبنـاء أخيك ويصبحون أطباء ومحامين ويفوزون بمناصب الدولة وكراسى البرلمان، أما أبناؤك وأما أنت، فلن تجدوا حتى ما يملأ بطونـكم إلا بشق أنفسكم، ولو أنصف القانون لكنتم مثلهم إن لم تفوقوهم لأنكم عبقريون!

— قم يا شيخ! لا ترض هذا الهوان الذى أنت مقاسيه! كيف يدعى أخوك أنك لا تملك حجراً من هـذا البيت المنيف؟ إنه إن شاء طردك الآن فلا يكون لك مأوى إلا بيوت المحسنين؟ وإذا كان ذلك فماذا يكون فرق ما بينك وبين الشحاذين؟ قم! إنه لا يستحق إلا القتل! القتل وحـده ينجيك مما أنت فيه! تستطيع أن تحتاط فلا يراك أحد وبذلك تستعمل القانون فى براءتك كما استعمله أخوك فى سلب حقوقك: أليس يحكم القضاة ببراءتك إذا لم تقم أدلة تدينك؟ لن ينهض ضدك برهان على أنك صنعت هذا! أليس بمثل ذلك ضاعت أموال الشركة التى ضارب بها أبوك؟ ألوف من الجناة والنصابين واللصوص والمبارين يفلتون من أيدى العدالة لأنهم لا يقعون فى شراك القانون: وهم يفكرون فى الجريمة والسرقة وأكل أموال الناس بالباطل قبل أن ينفذوا خططهم فتجىء محبوكة وتطيش حولهم سهام القانون!

— هلم! لا تكن جباناً!

وهكذا ظلت الشياطين عاكفة على فؤاده تزخرف له وتنفخ فيه حتى تشجع قليلا وأخذ يفكر فى الجريمة بالفعل؛ وهونها عليه أن أباه وأخاه قد سبقاه إلى استخدامها من قبل، فقد استخدمها أبوه ليأكل أموال الشركة، واستخدمها أخوه ليفوز بكل الثروة التى نزل له عنها والده حتى لا تستولى عليها الشركة فيما إذا حاقت به الخسارة المالية، فلم لا يستخدمها هو؟ بل هو يستخدمها لغرض أسمى، إنه سيستخدمها للانتقام من أخيه الذى يريد أن يقتله قتلا مدنياً حيث يعيش فقيراً معدماً ... وهذا، كما يفهم

إبراهيم ، هو أشد القتل ، إذ ليس القتل فى رأيه دماً يتدفق من غلاصم القتيل ، بل القتل هو تحويل دم السعادة من مجراه الطبيعى إلى مجرى غير طبيعى باسم القانون ، فيعيش المغتصبة سعادته كالمقتول بل أشد ، لأنه يحيا حينذاك ليتألم حتى يموت ، وليشهد مأساته ويتجرع مرارتها ، بينما الغاصب يحسو أقاويق السعادة التى سلبها من الغير بالغدر ، ويتلذذ دائماً بأن صاحبها الحقيق لم يستطع أن يستردها منه ، وبذلك لذته فى نفوس الغاصبين ، بل هم أحياناً ينشدقون به فى تيه وافتخار

إذن ، لقد صمم ابراهيم على قتل أخيه ... ولم يعد يفكر فى فشل محاولته مطلقاً ؛ بل هو قد صمم على ذلك وهو مدفوع بتيار العاطفة المشبوبة التى تأكل صدر صاحبها ، كما تأكل النار بعضها . . . لقد عميت بصيرته هو أيضاً . لقد آمن بعجزه عن السعى فى الحياة كأن أباه لم يترك له شيئاً قط . وهذا هو أكبر عيوب شبابنا ... لقد كبر عليه أن يبدأ جهاده من حيث كان يظن أنه أوشك أن ينتهي .. ومن أكبر عيوبنا نحن الشرقيين أننا سرعان ما نقنط من النجاح فى الحياة لمجرد الفشل الأول الذى نقع فيه ، أو العقبة الأولى التى تعترض سبيلنا ، وقد ننثنى عن مواصلة السعى ظناً منا أن كل شىء قد انتهى . ونحن أقوام نؤمن إيماناً سخيفاً بالحظ ، مع أن ديننا هو أقوى الأديان ، ولن نستحيي من أن ندعوه دين القوة والسعى ومواصلة الكفاح مع الاعتماد على الله فى ذلك جميعاً

لقد عبس ابراهيم للحياة وتجهم ، وانطلق يشكو سوء حظه ، ويتسخط على المقادير ، ولم يفكر فى خطة إيجابية قط ، لم يفكر إلا فى الوسائل المعتمة التى ينتقم بها من أخيه ... وألحت الشياطين على فؤاده توسوس فيه وتصرخ ، ثم تغلى دمه ليكون حاراً فواراً يستجيب ولا يتردد

وفكر وهو يشحذ سكينه فى أن يستخدم الرذيلة فى إخضاع أخيه . فكر فى أن يغرى به بعض السفهاء والشذاذ يهددونه ... وفكر فى تلفيق بعض التهم التى يلصقها الأشرار بالأبرياء فتذهب بشرفهم أو بثرواتهم . . . لكنه هزىء بكل ذلك واستسخفه فنبذه ولم يعد يفكر فيه

***

وكان لمصطفى مكتب فى الطابق الأول من المنزل يجمع أوراقه ومستنداته ، وإن لم يحو من الثروة الطائلة التى خلفها له أبوه قليلا أو كثيرا . فبينما إبراهيم نازل على الدرج ، وبينما هو يفتح باب الردهة التى تؤدى إلى مكتب أخيه ، إذا فكرة مفاجئة تمر كالبرق فى خاطره . . . ذلك أنه فكر فى أن يقتحم المكتب عسى أن يجد فيه شيئا ينفعه ، وتقدم بالفعل إلى الباب الهائل الذى بدأ يرقص أمام ابراهيم الخائف المذعور ... ولشد ما شده الشاب حين وجد الباب مفتوحا ... فدخل ، وأغلق المكتب ، ثم بدأ يعبث بأوراق أخيه ... ولما لم يجد بها مأربه ، لم يبال أن يحطم أدراج المكتب ثم أخذ ينظر فى الأوراق نظر الخائف الوجل .. وكانت أصابعه ترتجف كلما تناولت ورقة ليرى ما هي ... وكان كثيرا ما ينتفض كلما سمع حركة ، بل لقد هم أن ينصرف حينما سقط أحد الأضابير فأحدث صوتاً مزعجا جعل الدم يتجمد فى عروقه

ثم شع بريق الفرح فجأة فى عينيه !

وطفق قلبه يخفق بشدة !

يا فرج الله ! خطابات من الشيخ عبد الواحد عليه رحمة الله إلى ولده مصطفى يخبره بما صح عليه عزمه من التنازل له عن ثروته بطريق البيع والتسجيل لأنه شارع فى مضاربة إما أن تضاعف ثروته أضعافاً مضاعفة ، وإما أن تذهب بالأخضر واليابس إذا بقى فى يده أخضر أو يابس !

ثلاثة خطابات طويلة عريضة فياضة بخط الشيخ رحمه الله وتجاوز عن سيئاته تشرح الموضوع وترسم الخطة وتضع التواريخ

لقد كتبها الشيخ من الاسكندرية فى الشهر نفسه الذى تم فيه البيع والتسجيل بالمحكمة المختلطة هذه هى السكين حقاً ! وهكذا يكون القتل !

* * *

— أنا يا قليل الخير ، يا ناكر الجميل ، أنا الذى سترتك ولمت شمثك بعد موت أبيك ، يكون جزائى منك أن تتجسس علىّ ، وتبحث ورائى ، وتنسل كاللص إلى مكتبى فتحطم أدراجه عساك تقع على سلاح تغمده فى صدرى ؟

— أينا كان لصاً يا مصطفى ؟ أنا أم أنت ؟

— سلْ نفسك !

— لقد سألتها فقالت إنك أنت كنت اللص !

— لأنى كسرت الأدراج وسرقت ما سرقت؟

— ليس هذا كل ما يفعله اللصوص !

— وماذا يصنعون أكثر من هذا ؟

— من الناس لصوص لا يحطمون الأقفال ولكن يحطمون حياة الناس ويسلبونهم سعادتهم ، والمؤلم أن القانون لا يدعوهم لصوصاً ، بل هم أمامه شرفاء محترمون

— هذه هى الفلسفة التى تعلمتها من المدارس !

— بل هى الفلسفة التى تعلمتها منك !

— وماذا سرقت من مكتبى إذن ؟

— أنا لم أسرق شيئاً ذا قيمة فاطمئن !

— أنا مطمئن يا إبراهيم ، فأنا لا أضع مليما ولا مستنداً فى مكتبى ، ولا فى بيتى ، وأنا واثق أنك لن يهدأ لك بال حتى يخرب منزلى

— وإن لم تتق الله فىّ وفى أخويك على وسعاد فسيعجل الله خراب بيتك ، وإنى أنذرك من الآن

— ولن يستجيب الله لك إن شاء الله

— أنا لا أبلغك يا مصطفى ! إن لم ترد إلينا ما هو حق لنا فلن يبقى لك مليم واحد من ثروتك الواسعة بنفسك ، وعندها تعض على أنامل الندم !

— وكيف ؟ أى حق لكم عندى ؟

— ما كنا ترثه لو لم يتنزل لك والدنا عن ثروته حتى لا تضيع بالمضاربة !

— لقد باع لى أبوكم بيعاً حراً مسجلا ، وقد أخذ نقودى فضارب بها فضاعت ، ولولا ذلك لكنت اليوم أغنى حالا مما أنا فيه !

— هذا هو الكذب والتلفيق الرخيص لأنك لم تكن تملك ستين ألفاً من الجنيهات !

— لقد نظرت هذه المسألة أمام المحكمة المختلطة وثبت بالقانون أننى كنت أملك أكثر من هذا المبلغ لأننى كنت شريك والدى فى تجارته وقد شهد التجار وشهدت العقود بذلك ، ولسنا بحاجة إلى حججك يا سيد إبراهيم ؟

— ستعرف أن كل هذا باطل إن لم ترد إلىّ حقوقى كاملة ، وإن لم ترد إلى أخوىّ حقوقهما كاملة كذلك ؟

— ليس لكم عندى حقوق فافعل ما بدا لك

إن استطعت أن تفعل شيئاً !

— سترى أنني مستطيع عمل كل شيء ، ولكني أسمعك خطاباً كتبه إليك أبوك عما كان ينتوى عمله قبل أن يبيع لك أملاكه هذا البيع الصورى الذى تتشبث الآن به كأنه حقيقة لا ريب فيها يا سيد مصطفى ، فاسمع :

وشرع إبراهيم يقرأ الخطاب الأول ، وما كاد يصل إلى نصفه حتى مادت الأرض تحت قدمى مصطفى : وحتى انطفأ نور العالم الجميل فى عينيه .. ولم ينتظر حتى يتلو أخوه الخطاب كله . بل هب كالعاصفة ، وانقض على أخيه السكين فطعنه فى صدره وبطنه عدة طعنات بسكين كان يحملها معه ، وكانت لا تفارقه فى روحاته وجيئاته ...

ووقع ابراهيم يتشحط فى دمه ، وأسرع مصطفى فتناول الخطاب الذى كان أخوه يتلوه . ثم دفع يديه فى جيوبه يبحث عن خطابات أخرى أو وثائق من هذا الصنف الخطر الذى إن وصل إلى خصومه من رجال الشركة لم يبق له من حطام فردوسه شيء ...

وترك أخاه يجود بأنفاسه ، ثم أسرع فغسل يديه وأحرق ملابسه التى علق بها شيء من دم أخيه وساعدته زوجته فى كل ذلك . ثم صعد إلى حجرة أخيه فبحثها بحثاً دقيقاً عله يقع على شيء مما دبر ابراهيم له . لكنه لم يقع على شيء

أرأيت إذن ؟ !

لقد فكر ابراهيم فى الجريمة ثم عدل عنها ، ثم صمم على ارتكابها ، لكنه حينما عثر على خطابات أبيه نسى القتل ونسى السكين ، ونسي كل شيء ، لأنه حسب أنه انتصر ... وأن أخاه سيخضع له أو تذهب كل ثروته ... وهكذا انتفت فكرة القتل بسرعة زائدة من خاطره ، بعد أن فكر فيها خمسين أو ستين يوماً على الأقل . .

أما مصطفى !... فيالهول ! لقد رأى خرابه فى هذا الخطاب الذى راح يتلوه إبراهيم عليه ، فلم يفكر إلا لحظة ... لحظة واحدة ... واندفع كالذئب يغمد سكينه فى صدر أخيه حتى تخيب مؤامرته ، وحتى لا تضيع ثروته ، وحتى لا تأخذ العدالة مجراها ، وحتى ينتصر القانون . . . القانون الذى لا جرم كان يحكم على مصطفى وينزع منه أملاكه ويردها إلى الشركة لو أنه فاز بالخطابات التى مع إبراهيم ! والقانون فى ذلك يشبه السكين تماماً ، أو يشبه المدفع يكون فى يد المحارب يصب منه النار على أعدائه ، فاذا سقط هذا المدفع فى يد الأعداء لم يتوانوا عن صب ناره فوق رأس صاحبه !

هنا إذن فرق ما بين إبراهيم ومصطفى ...

لقد كان إبراهيم شاباً مهذباً قرأ التاريخ والأدب ودرس الدين وعرف الله ... ولذا لم يستطع أن ينفذ الجريمة التى اعتزمها لأنه لم يجبل على الشر ولم يجر الشر فى دمه . . . ولما وجد الخطابات حمد الله واستبشر ، لأنها جنبته هذه الخطة الدامية التى كان فى شك من مصيرها

أما مصطفى فلم يفكر كثيراً . . . إنه استهول أن تضيع ثروته التى يفضلها على كل شيء ، فلم يبال ديناً ولا رباً ولا ضميراً . . . ولذلك لم يكلفه الفتك بأخيه شيئاً إلا أن ينقض عليه كالبرق ، وأن يغمد سكينه فى صدره !

لم يقتل إبراهيم ! بل ظل فى المستشفى شهراً وبعض الشهر ، ثم خرج منه سليما معافى

ورفض أن يتهم أخاه ! وأربك صمته رجال القضاء وحيرهم ! ترى علام عول ، وماذا اعتزم ؟ !

لقد فتح ذلك الحادث الرهيب عينيه على حقيقة الدنيا ...

نضال !

أليست الدنيا نضالا فى نضال ؟ فلماذا تكون نضالا من هذا الصنف الوضيع ؟ لماذا تكون نضالا على ميراث ؟ لماذا لا تكون نضالا شريفا ؟ لتكن كذلك إذن ... وليبدأ إبراهيم النضال الشريف من أجل الرقمة إذن ... إن الدنيا ليست لمن ورث الثروة بل هى لمن عمل عليها وملكها بكده وكدحه ، وإن الذى يملك الدنيا من هذا السبيل ليشعر بلذة حلوة سحرية ، ليس يشعر بمثلها الذى ملكها من طريق أبيه ... مثال ذلك الطير إذا وقع على الفريسة بعد أن يرمقها ويتخيرها فهو ينشب أظفاره فيها بفخار وعظمة ، أما الفريسة التى تسقط على الطير فقد تكون جيفة تقتله أو تسممه !

هذا هو الوحى الجديد الذى هبط على إبراهيم ! وهو وحى كريم طيب خير وإن نبع من جراحات وكلوم ، وارتوى من دم كريم طيب خيّر مثله !!

وتبسم ابراهيم تبسمة خبيثة هى بقية الشر فى نفس آدم !

ذلك أنه صمم هـذه المرة على أن يشرك أخاه مصطفى فى هذا النضال !!...

فكرة عجيبة !! لكن تنفيذها سهل هين ! إن الخطابات التى وقع عليهـا فى مكتب أخيه محفوظة فى مكان حريز لم تمسسها يد ... أما الخطابات التى أخذها مصطفى حينا طمن أخاه ، فهى صور نسخها ابراهيم ، وقلد فيها خط أبيه تقليدا عجيبا انطلى على مصطفى ولم يجعله يشك قط فى صحتها

وهكذا ذهب إبراهيم إلى رجال الشركة فساومهم على مبلغ كبير جداً لقاء هذه الخطابات التى ترد عليهم أموالهم حين يستصفون أملاك الشيخ عبد الواحد عليه رحمة الله ، وتجاوز عن سيئاته

ولما خرج مصطفى من المحكمة صفر اليدين ، نظر حوله إلى الدنيا الواسعة الجميلة فلم تبسم له على جارى عادتها ! بل لعلها تبسمت ساخرة منه ، ولعل هذه الابتسامة هى التى جعلته يشحذ سكينه فيغمدها فى صدره ، لأنه لم يطق أن يذهب إلى المنزل المنيف فيقال له : « كلا أيها السيد ، ليس هذا منزلك ! » ولأنه عاش حياته لا يصل بينه وبين الله ، بل هو لم يعرف له إلهاً غير هواه ... ولو قد عرف الطريق إلى الله لحسنت آخرته وحسنت دنياه ...

وأتم ابراهيم تعليمه ... وظفر فى الحياة وناضل من أجل الثروة ... لكنه برغم ماجمع وبرغم ما اكتنز لم يبارح خياله طيف أخيه ، فكان يبكى من أجله ويستغفر له ربه ، ويجمل بين يدى نجواه صدقات يغمر بها أبناء مصطفى ... فلم يدعهم يشعرون بمرارة اليتم أو صرامة العوز

دريني خشبة

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشاً